الفكر اللاهوتيُّ والعلم: رؤية مسيحيَّة مُصلَحة

القسّ عادل عبد المسيح ثابت

مقدمة

في هذه الورقة[1] أقدم طرحًا مؤدَّاه أن الرؤية المصلحة للعالم تساعدنا في فهم أفضل للعلاقة بين الإيمان والعلم، وأن الصراع الحقيقي والخفي هو بين رؤى مختلفة للعالم والإنسان، وليس بين الإيمان والعلم. ولكي أوضح هذا الطرح، سأقدم أولًا مفهوم "الرؤية للعالم *Worldview* "، كمفهوم مركزي في هذه المناقشة. ثانيًا، سأقدِّم رؤيةَ المذهب الطبيعي، وهي رؤيةٌ ماديَّةٌ للعالم والتي يقول أصحابها إنها تمثل جزءًا أساسيًّا من الرؤية العلمية للعالم "*Scientism*"، والتي تجعل من العلم أمرًا مطلقًا يمكن من خلاله تفسير معنى الحياة الإنسانية والغاية منها. وتشير هذه النزعة أساسًا –المذهب الطبيعي– إلى كون الطبيعة هي المصدر الأساسي والجوهري لكل ما هو موجود، وإلى محاولة تفسير كل شيء وفقًا لقوانين الطبيعة. وبعد ذلك، ثالثًا، سأقدم للرؤية الدينية المسيحية المصلحة للعالم مبينًا أنها تساعدنا على فهم العلاقة بين الإيمان والعلم على نحو أفضل.

أولًا: الرؤية للعالم والحياة *Worldview*

هو مصطلحٌ فلسفيٌّ ظهر في الفلسفة الألمانية ويعني *world and life view* أي الرؤية للحياة والعالم. وأول من استخدمه هو الفيلسوف الألماني كانط، وهو مصطلح مُفضَّل لدى اللاهوتيين الهولنديين الذين ينتمون للكالفينية الجديدة هو يعني ببساطة (وجهة نظر للحياة) ويعني كل مبادئ الشخص واعتقاداته. و**تعريفه** هو الإطار المفاهيمي لاعتقادات الشخص الأساسية بخصوص الأشياء. ويحتوي هذا التعريف على:

الرؤية للعالم: أمر من اعتقادات الشخص وليس مشاعر أو آراء، ولكن يحمل ادِّعاءً معرفيًّا وإدراكيًّا يمكن الدفاع عنه بالحجج.

---

[1] - Albert M. Wolters. Creation Regained: Biblical Basics for a Reformational Worldview
- مقال Thomas Burnett. What is Scientism?
- مناقشات اللاهوتي John Calvin
- مناقشات اللاهوتي R. C. Sproul
- مناقشات الفيلسوف Alvin Plantinga

الرؤية للعالم: يجب أن تتعامل مع الاعتقادات الأساسية بخصوص الأشياء. يجب أن تتعامل مع الأسئلة المطلَقة والنهائية التي نواجهها، إنها تحتوي على المبادئ العامة. معنى الحياة؟ ما الغاية والمصير للوجود الإنساني؟ هل العنف صحيح بأي شكل من الأشكال؟ هل توجد معايير للحياة الإنسانية؟ هل توجد دلالة للألم؟

تقود هذه الاعتقادات من نحو الأشياء إلى نسق محدد. وعندما تكون الرؤية جادة تكون متَّسقة وغير ساذجة. يمكن أن يوجد عدم اتساق في رؤانا، ليس فقط إذا كان هناك تضارب بين الاعتقادات، بل أيضًا إذا فشلنا في الحياة بانسجام مع ما نؤمن به ونعتقد فيه. إذا كانت الأفعال بعيدةً عمَّا نعتقد، فإننا نحاول تغيير إما أفعالنا أو اعتقاداتنا. فلا يمكننا أن نظل في صحةٍ فكريةٍ إلى مدةٍ طويلةٍ إذا كنا لا نقوم بمجهود لحل هذا الصراع أو التناقض.

إن كل شخص لديه W.V من نوعٍ ما. عند مناقشة معظم الناس عن رؤيتهم للحياة والعالم، ربما لا يعرفون إجابةً، ولكن سوف تنشأ اعتقاداتهم الأساسية بسرعة كافية عندما يواجهون طوارئ عملية، ويواجهون القضايا المعاصرة، مثل ما رأيكم تجاه: الكرازة؟ حوار الحضارات؟ حب السلام؟ الشيوعية؟ الشذوذ الجنسي؟ عقوبة الإعدام؟ وكون أن لديَّ W.V هو ببساطة جزء من كوني موجودًا إنسانيًّا ناضجًا.

دور الـ W.V في حياتنا؟

تقوم بعمل المرشد، وخريطة لما هو صواب وما هو خطأ. ومن السمات الإنسانية أنه لا يمكننا أن نعيش بدون هذا التوجيه والإرشاد؛ لأننا مخلوقاتٌ مسؤولةٌ ونحتاج إلى عقيدةٍ نحيا بها. ومن المهم أن نلاحظ أن رؤانا وحُجَجَنا ليست هي فقط المتأثرة بالـ W.V ولكن كل قراراتنا أيضًا: مثل هل ننخرط في السياسة؟ هذه الرؤية للعلاقة بين الـ W.V وتصرفاتنا أنكرها العديد من المفكرين:

– الماركسية: ما يرشد سلوكنا هو الصراع الطبقي

– كثير من علماء النفس: ديناميكية حياتنا الشعورية هي التي تحكم سلوكنا واعتقاداتنا، تكون هنا مُنقادة وليست قائدةً، فهي عقلنة للشعور. وعلماء نفس آخرون يرون أن أفعالنا مشروطة بدافع فيزيائي من البيئة الخارجية (السلوك الشَّرْطي).

– إن كل هذا محل اهتمام لأن السلوك الإنساني معقَّد ويشمل كل هذه الجوانب، ولكن السؤال ما هو العامل الحاسم والأهم في تفسير السلوك الإنساني؟ الإجابة هي (الاعتقاد). وهذا في حد ذاته نوع من الـ W.V وما قدمه هؤلاء المفكرون هو نوع من الـ W.V عن رؤيتهم للموجود الإنسانيّ.

ما العلاقة بين الـ W.V والكتب المقدسة؟

يجب أن تتشكل وتُختَبَر بواسطة الكتب المقدسة، وهذا يعني أنه هناك فجوة ذات معنى بين هؤلاء الذين يقبلون الكتب المقدسة باعتبارها كلمة الله، وبين أولئك الذين لا يقبلونها على أنها كذلك. ويعني أيضًا أن على المسيحيين أن يفحصوا باستمرار اعتقاداتهم للحياة والعالم المناقضة للكتب المقدسة؛ لأن الفشل في ذلك سيجعل هناك ميلًا شديدًا لتشكيل العديد من الاعتقادات، وحتى الأساسية منها من الثقافة التي تمت عَلْمَنَتُها. نحن نعترف بسلطان الكتاب المقدس كسلطانٍ إلهيٍّ؛ أي يعلو فوق كل سلطان آخر. وهناك ضغط على المسيحيين لتأكيد إدراكهم بسلطان الكتاب والتقيُّد به في كل دوائر الحياة، وهذا الضغط هو ثمرةٌ للرؤية العلمانية للحياة والعالم.

إن مركز الكتاب المقدس هو التعليم، ولا يوجد نصٌّ لا يعلِّمنا شيئًا عن الله وعلاقته بنا. والشهادة والاعتراف هنا يكون عمليًّا في الحياة والموت وعلاقة المسير العهديّ مع الله. وهو ما قاله بولس في رومية 2: 12 "تجديد الذهن".

إننا نظن أنَّ الكتاب المقدس يعلِّمنا فقط عن المعمودية والصلاة والاختيار والعقيدة عن الكنيسة، ولكنه يتكلم أيضًا بشكل أساسي عن كل شيء في حياتنا، بما فيها التكنولوجيا والاقتصاد والعلم. إن منظور التعليم الكتابي يشمل الشؤون العادية ويعني ذلك أن نأخذ بشكل جاد الكتاب المقدس وتعاليمه بالنسبة لمجمل حضارتنا الآن.

علاقة الـ W. V مع اللاهوت والفلسفة؟

هناك اتجاه يقول: فهمُنا للأشياء اعتمادًا على سلطان الكتاب المقدس يُسمَّى "لاهوت"، وفهمنا للأشياء اعتمادًا على سلطان العقل يُسمَّى "فلسفة". وهذا افتراضٌ خاطئٌ يقوم على أساس أن اللاهوت لا

يمكن أن يكون إنسانيًا وأن الفلسفة لا يمكن أن تكون كتابيةً. إنَّ الفلسفة واللاهوت مجالان متخصصان، والحال ليس كذلك مع W. V لأنها هي ما قبل العلمي بينما الفلسفة واللاهوت علميان. ويمكن التمييز بين الفلسفة واللاهوت من خلال مصطلحين هما: structure الفلسفة، direction اللاهوت.

ثانيًا: المذهب الطبيعي والعلموية (المذهب العلمي) Scientism

كما أشرنا إلى أن المذهب الطبيعي هو محاولة تفسير كل شيء وفقًا لقوانين الطبيعة، وبالتالي فهو – كما يذهب الطبيعيون– يدعم العلموية. والعلموية كلمة غريبة إلى حد ما، ولكن لأسباب سوف نراها فهي كلمة مفيدة. ورغم أن المصطلح تم صكه حديثًا إلا أنه مرتبط بالعديد من الاعتقادات والمبادئ الأخرى مثل: المذهب المادي، المذهب الطبيعي، المذهب التجريبي، الوضعية.

تعريف العلموية:

يعرف *Richard G. Olson* العلموية بأنها: "السعي أو المجهودات لتطبيق الأفكار والمناهج والممارسات والاتجاهات العلمية على الشؤون السياسية والاجتماعية الإنسانية" ويعرفها *Tom Sorell* بأن "المذهب العلمي هو مسألة وضع قيمة مطلقة في العلوم الطبيعية مقارنةً بفروع التعليم أو الثقافة الأخرى"، كما يعرفها *Lan Hutchinson* بأنها "العلم، كما يظهر بشكل نموذجي في العلوم الطبيعية، هو المصدر الوحيد للمعرفة الحقيقية".

تاريخ المذهب العلمي

الثورة العلمية

إن جذور المذهب العلمي تعود إلى القرن 17 في أوروبا، فيما يعرف في هذا العصر بالثورة العلمية. حتى هذه اللحظة كان معظم العلماء مختلفين بخصوص التقليد الفكري وبشكل خاص بالكتب المقدسة المسيحية واليهودية وأيضًا الفلسفة اليونانية. ولكن السيل الجارف من التعليم الجديد في أواخر عصر النهضة بدأ يتحدى سلطان القدماء وبدأت الأسس تتصدع. ترأس فرانسيس بيكون ورينيه ديكارت وجاليليو وقادوا حركة عالمية تعلن أساسًا جديدًا للتعليم، والذي يحتوي على فحص دقيق للطبيعة بدلًا من تحليل النصوص

القديمة. استخدم بيكون وديكارت أسلوبًا قويًّا لتأسيس منهجهم الجديد، وقالا إنه بتعلم كيفية عمل النظام الفيزيائي الطبيعي، فإنه بمقدورنا أن نصبح أسياد الطبيعة ومُلَّاكَها–مقابل فكرة التكليف الإلهي.

وفي فعل ذلك، يمكن للإنسانية أن تتغلَّب على الجوع من خلال ابتكارات الزراعة، وأن نحدَّ من الأمراض من خلال الأبحاث الطبية، وفوق الكل يمكننا أن ندعم حياةً أكثر جودةً من خلال التكنولوجيا والصناعة بشكل مطلق. فإنه يمكن للعلم أن يحفظ الإنسانية من الآلام غير الضرورية ومن ميول الناس لتدمير أنفسهم، وأن العلم يَعِد بتحقيق هذه الأهداف في هذا العالم وليس في الحياة الأخرى. هذا المنهج الجديد لاقى نجاحًا كبيرًا، وبدأ المذهب العلمي في الانتشار وكان ديكارت قد صوَّر العالم وكأنه آلةٌ عملاقةٌ.

ثم في القرن التالي (التنوير في القرن 18) واصل العديدُ من مفكري التنوير هيامهم بقدرة العلوم الطبيعية، وقد ادعوا أن العلم ليس فقط يستطيع تحسين نوعية الحياة الإنسانية، بل أيضًا يمكن للعلم أن يعزز التقدم الأخلاقي، حتى أن الموسوعي *Denis Diderot* عمد إلى جمع وتنظيم وحفظ كل المعارف الإنسانية حتى يصبح أطفالنا –بعد أن يكونوا أفضل تعليمًا– أفضل فضيلةً وسعادةً في نفس الوقت. كما أن العديد من الفلاسفة الفرنسيين ادعوا حتى أن العلم يمكنه أن يكون بديلًا للدين.

ثم كانت الوضعية في القرن 19 وكانت أقوى صورة للمذهب الطبيعي، وذلك مع أوجست كونت، والذي بنى فلسفته الوضعية على تجريبية ديفيد هيوم ومذهبه الشكِّي. وكان أن ادَّعى أوجست كونت أن المعلومات الصالحة يمكن الحصول عليها فقط من خلال الإحساس، فلا شيء مفارق ولا شيء ميتافيزيقي يمكن أن يكون صالحًا.

وفسر كونت الفكر الإنساني بثلاث مراحل هم: المرحلة اللاهوتية؛ أي تفسير الظواهر بالكائنات الغيبية، والمرحلة الميتافيزيقية؛ وهي التفكير المجرد، وأخيرًا المرحلة الوضعية؛ وهي المرحلة العلمية. ولقد كان كونت يعتقد أنه من خلال التقدم المستمر للفهم البشري سيتلاشى الدينُ، وستتحول الفلسفةُ والعلوم الإنسانية إلى أساس طبيعي، وستصبح المعرفة البشرية في النهاية نتاجًا للعلم، وأن أية أفكار خارج هذا المجال ستكون مجرَّدَ خيال أو خرافة.

في القرن العشرين قويت الوضعيةُ وتطورت من خلال الوضعية المنطقية، والتي أخذت طريقها من خلال حلقة فيينا وقامت بتنشيط المبادئ الأساسية للوضعية مع المنطق الرمزي ونظرية الدلالة. وقالوا إن هناك نوعين فقط من العبارات ذات معنى؛ العبارات التحليلية والعبارات التجريبية، وأن أي شيء خارجهما هو بلا معنى.

المذهب العلمي اليوم

كارل ساجان: إن الكون هو كل ما هو موجود وكل ما كان وكل ما سيكون.

تمييز العلم من العلموية

إذا كان العلم يختلف عن العلموية، فما هو هذا الاختلاف؟ العلم نشاطٌ يسعى إلى استكشاف العالم الطبيعي باستخدام طرق راسخة ومحدَّدة، ونظرًا للتعقيد والاتِّساع في الكون؛ فهناك تخصُّصات كثيرة علمية لكلٍّ منها تقنياتها الخاصة، ويوسع العلم فهمنا بدلًا من تقييده. من ناحية أخرى، فإن العلموية هي نظرةٌ تأمليَّةٌ حول الواقع النهائي للكون ومعناه.

إن الاحتفاء بالعلم لإنجازاته وقدرته الرائعة على شرح مجموعة متنوعة من الظواهر في العالم الطبيعي شيءٌ، والادعاء بأنه لا يوجد شيء يمكن معرفته خارج نطاق العلم شيء آخر. فبمجرد أن تقول إن العلم هو المصدر الوحيد للمعرفة البشرية فإنك تتبنى موقفًا فلسفيًّا. إن العلموية ذاتها لا يمكن للعلم نفسه التحقق منها أو نفيها، إذًا فهي ادِّعاء غير علمي.

العلموية: هي الترويج إلى أن العلم هو المعنى الموضوعي الأفضل أو الوحيد الذي يجب على المجتمع أن يحدد من خلاله القِيَم المعيارية والمعرفية. تبنى *Alexander Rosenberg* العلموية كمصطلح للرؤية التي تقول إن العلم هو المصدر الوحيد الموثوق للمعرفة. وهي الرأي القائل بأن العلم التجريبي يشكِّل الرؤية للعالم والحياة الأكثر موثوقيةً والأكثر قيمةً للمعرفة البشرية، وإنها وحدها القادرة على إنتاج معرفة حقيقية عن الإنسان والمجتمع.

ثالثًا: الرؤية المسيحية المصلحة للعلم

ما الذي يميز الرؤية المصلحة؟

إن ثنائية الرؤية للعالم والحياة (ديني ودنيوي) ليست رؤيةً مُصلَحة، وهذا خطأٌ رهيبٌ؛ لأنه يعني أنه لا توجد خبرات حياتية في الكنيسة، وأيضًا لا توجد قداسة في السياسة أو الصحافة أو العلم على سبيل المثال. فالرؤية المصلحة لا تقبل التمييز بين المقدَّس والدنيوي. فلا شيء منفصل عن الله أو يكون بعيدًا عن الحقائق الأساسية للإيمان الكتابي مثل: الخلق، السقوط، المصالحة. النعمة تسترد الطبيعة والفداء بيسوع المسيح يعني استرداد الخليقة الصالحة الأصلية (الفداء هو استرداد الخلق). إن التأكيد الأساسي للكتاب المقدس هو على ثلاثة أبعاد أساسية: الخليقة الأصلية، فساد الخلق بالخطية، الفداء واسترداد الخليقة في المسيح يسوع.

و"الرؤية المصلحة" ظهرت في القرن الـ20 في أعمال لاهوتيين هولنديين أمثال: كايبر، بافينك، ديوفيرد، فولينهوفن. من خلال اللاهوت والفلسفة وبعض المجالات الأكاديمية الأخرى، خاصةً من خلال الأعمال الاجتماعية والثقافية التي نهضت في إطار رغبة عميقة لطاعة الكتب المقدسة في كل مجالات الحياة والخدمات.

نميز بين نشاط الخلق لله (حدث منذ زمن بعيد) وبين النظام المخلوق (ظل معنا منذ ذلك الوقت). نفس الإله الذي خلق ونفس القدرة السيدية التي دعت الكون إلى الوجود هو نفسه الذي يحفظ هذا الكون في الوجود من لحظة إلى أخرى إلى يومنا هذا.

نستخدم كلمة "قانون، Law"، للتعبير عن مُجمَل أفعال الله الآمِرَةِ نحو الكون. وهذا المصطلح ليس فقط كلمة كتابية مركزية لكنها تركز الانتباه أيضًا على الله باعتباره صاحب السيادة كالإله والملك. إن الناموس أو القانون هو تجسيد لسيادة الله في الخلق. فالخالق وضع القانون ويحكم العالم بأمره، كل الأشياء تحيا وتتحرك بواسطة قراره السياديّ التشريعي. وهناك طريقتان يفرض الله من خلالهما ناموسه في الكون وينفِّذ مشيئته: إما بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر من خلال المسؤولية الإنسانية. إن الله وضع الكواكب في مداراتها وجعل المواسم ويجعل البذار تنمو والحيوانات تتكاثر. كما أنه أيضًا جعل الإنسان وكيلًا في مهمة صناعة الأدوات وتحقيق العدالة وإنتاج الفنون والاجتهاد المعرفي والبحث العلمي.

باختصار نرى أنَّ حكم الله بالناموس فوريٌّ في العالم غير البشري، وغير مباشر في الثقافة والمجتمع. والإنسان مُفوَّض من الله وصاحب سيادة. يتوافق مع هاتين الطريقتين للحكم نوعان من القوانين: القوانين الطبيعية، والمعايير. الحجر الساقط يطيع بالضرورة قانون الجاذبية، والنسر يطيع بالغريزة، لكن الإنسان يمارس مسؤوليته في طاعة المعايير. إن السيد الكوني يبسط قوانينه ونواميسه لكل شيء، الملك المطلَق يطلب أن تكون إرادته يمكن تمييزها في كل شيء. ولكن في العقل العلماني الغربي فإن التمييز كبير جدًّا بينهما لدرجة يبدو فيها أنهما ليسا نوعين مختلفين لنفس الفئة، بل كفئتين مختلفتين تمامًا. ويتحدثون عن المعايير وكأنها قِيَم في تعبيرٍ عن محاولة الإنسان من التحرُّر من كل الضرورات الإلهية. (مزمور 147: 15–20) أوامر الطبيعة والموجود الإنساني دفعة واحدة، فلا يوجد اختلاف جوهري بين كلمة الله لوصيته بالنسبة للثلج والجمد ووصيته بالنسبة لشعبه. سواء نواميس في الطبيعة أو المعايير فإنهما ينتميان إلى نفس القانون العالمي الشامل لكل الخليقة.

تكوين 1 هو نص مفتاحي للخلق

تشير الآية "فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ" (تك 1: 1) إلى الخلق من العدم وهذا ضد أفكار ادَّعت أن الله خلق من خلال مادةٍ أوليةٍ أزلية غير مخلوقة. وتعبير "خربة وخالية" لا يصف فوضى وهو تفسير سائد يعتمد على المتوازيات البابلية، لكن هذا التعبير يعكس الخطوة الأولى تجاه ترتيب الكون الأرضي مثل إطار المنزل العاري قبل اكتماله وتأثيثه أو مثل الرسم الأوَّلي للفنان الذي يتم ملؤه بالألوان والتفاصيل لاحقًا. إن الكلمة "خربة" هي *formless* غير مشكلة *unformed* وليست *deformed* مشوهة. ثم بعد ذلك، يتم تفصيل وتأثيث الأرض وتحويلها إلى خليقة جميلة. وكما يقول الكتاب في عب 11: 3: "بِالإِيمَانِ نَفْهَمُ أَنَّ الْعَالَمِينَ أُتْقِنَتْ" والكلمة المترجمة "أتقنت" هي نفسها المستَخدَمة في أي مكان آخر عن نشاط الخزاف في تشكيل كتلة الطين إلى إناء خزفي مثل رو9: 21. وبكلمة الله يحول الله الأرض غير المشكلة إلى تحفة فنية. هنا نفهم أن للإنسان مهمة حضارية وهو مفوَّض من الله أن يملأ الأرض أكثر ويشكلها أكثر "وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ»" (تك 1: 28).

التاريخ بهذا المعنى يعني انفتاح وتوليد الإمكانات المخفية في رحم الخليقة. الخليقة ليست الشيء الذي صنع مرة واحدة وتظل كتلة ساكنة، ولكن يوجد كشف تدريجي للخليقة؛ فقانون الخلق يصرخ لأن يكون تجريبيًّا. إننا مدعوون للمشاركة في عمل الله الخلقي المستمر لنكون مساعدي الله في تنفيذ مخطَّط تحفته حتى النهاية. النطاق الواسع للحضارة الإنسانية هو عرض الحكمة الرائعة لله في الخلق، وهذا هو المعنى العميق لمهمتنا في العالم.

إعلان الخليقة

الإعلان العام، قانون الخلق هو قانون إعلاني، وإعلان الله في نظام الخليقة يمكن معرفته، وهذا هو مغزى الدعوة للجميع (أع 14: 17؛ رو 1: 18- 20) الحكمة هي أن نعرف حكمة الله (النظام) وتوافق طرق الإنسان مع ذلك، وبالتالي تكون الحكمة هي الالتزام بالدستور الإلهي وبالتالي يجب أن نعرف هذا الدستور وننظم أنفسنا بناءً عليه. الحكمة هي التوافق مع خليقة الله. أم 1: 22، 23. إش 28: 23– 29 هنا الرب يعلِّم المزارع عمله وهو تعليم من خلال قوانين الخليقة.

صلاح الخليقة

الخليقة صالحة، وذلك مقابل الفكرة الغنوصية، وهذا يعني أن الخضوع للناموس ليس تقييدًا لخليقة الله، وإنما ذلك يجعل الحرية والصحة يعملان بشكل صحيح وظيفيًّا. البنية تشير إلى نظام الخلق، والاتجاه يشير إلى نظام الخطية والفداء. العلم –بحسب المفهوم المصلح– يجب أن يكون في خدمة الله، ومعلنًا جلاله وحكمه في الكون.

كل الخليقة مشمولة في نطاق فداء المسيح

يبدو غريبًا أن بولس يستخدم كلمة مصالحة "وَأَنْ يُصَالِحَ بِهِ الْكُلَّ لِنَفْسِهِ..." كو 1: 20 عندما يفكر فيما هو أكثر من البشر، فلا شيء في الخليقة محايد، وشعب الله مدعو لتعزيز التجديد في كل مجالات الخليقة وأنها مهمة فدائية. معجزات يسوع كلها (ماعدا لعن شجرة التين) تمثل معجزات استرداد. استرداد للصحة، استرداد للحياة، استرداد من الاستحواذ الشيطاني.

هناك افتراض أن المؤمن في العصر الحديث يعاني من فصام فكري بين ما يقدمه له الإيمان وما يقدمه له العلم وكأن الاثنين في تناقض، ومثال ذلك، الصراع الذي كان بين الكنيسة وجاليليو، ولكن الحقيقة لم يكن صراعًا بين كلمة الله وكلمة جاليليو وإنما كان صراعًا بين علماء الفلك التابعين لبطليموس والتابعين لكوبرنيكوس.

يعلِّم اللاهوت المصلح أن الكتاب المقدس هو رسالة الله الروحية للعالم الساقط المتألم، وفي هذا يشير كالفن إلى أن موسى والأنبياء كتبوا بلغة عامية شعبية لتوصيل الرسالة وليس بلغة علمية دقيقة وبناءً عليه – من وجهة نظري– لا مجال للحديث عن إعجاز علمي في الكتاب المقدس ولا عن خطأ علمي فيه.

ورغم أن اللاهوت المصلح يرى الكتاب المقدس باعتباره الرسالة الروحية من الله للإنسان الخاطئ المتألم، وأنه ليس كتابَ علم بالمعنى الدقيق، فإن الفكر المصلَح يرى في نفس الوقت أن الكتاب المقدس يضع الإطار العام للعلم؛ فهو يحدِّثنا عن الكون في مصدره ومقاصده ومصيره، وهو إطار عام لما يقدِّمه العلم من تفصيلات. وبحسب رأي ر. سي. سبرول فإن تكليف التسلط وإخضاع الخليقة هو بداية العلم لأن ذلك يستلزم معرفة قوانين الخليقة لتحقيق التكليف، وبالتالي فإن التكليف الإلهي يشتمل على التحدِّي أو السعي العلمي وعدم استنزاف موارد الخليقة واستخدامها بحكمة.

ونلاحظ أيضًا أن الفكر اللاهوتي لجون كالفن مُؤسَّس بشكل جوهريٍّ على الإيمان بسيادة الله وهي الفكرة التي اتخذها أبراهام كايبر وقدم من خلالها طرحه اللاهوتي. فلقد اعتقد كايبر أن الله يسود في كل مجالات الحياة المختلفة، السياسة، والفن، وأيضًا العلم. فالعلم بالنسبة له هو أحد المجالات التي تتجلى فيها سيادة الله وهو ما أشار إليه كالفن إلى أن الخليقة تحمل شهادة عن الألوهية وأن الرغبة في البحث عن الحقيقة وفحصها مغروسة في العقل الإنساني وهو ما جعل كالفن يدعو إلى التعمُّق في العلم باعتبار أن التعمق في العلم هو تعمُّق في الألوهية ومشاهدة حكمة الله وجماله وقوته، وأن الكتاب المقدس كالنظارة التي تساعدنا في فك شفرة الفكر الإلهي المكتوب بيد الله في كتاب الخليقة. نلاحظ أن في الوقت الذي فيه ينظر كالفن بإجلال إلى علماء الفلك والعلم بشكل عام، لكنه لم ينظر للكتاب المقدس كمصدر للمعرفة العلمية، ولكن هدفه – كما أشرنا سابقًا– هو الوصول إلى معرفة الله.

وجدير بالإشارة إلى أن الإيمان بوجود الله الخالق لهذا الكون أهمية خاصة للعلم؛ لأنه من خلال وجود الله وخلقه للعالم فإنه أودع القوانين التي تحكم الخليقة والقوانين هي أساس قيام العلم، وبالتالي لا يمكن أن يتناقض الإيمانُ مع العلم، ولكن الإيمان بوجود الله يضمن قيام علم، لأن عدم الإيمان بوجود الله يُسقِط العلم إذ لا يمكن قيام علم في إطار العشوائية. لذلك يجب أن يكون العالم من حولنا على درجة عالية من الانتظام والقابلية للتوقع حتى تنجح الممارسة العلمية. فالعلم مشروط باعتقادنا أو افتراضنا أن العالم يعمل بانتظام. وأيضًا من الركائز الأساسية للدين والعقيدة المسيحية أن الله يحكم العالم بطريقةٍ توفِّر نوعًا من الانتظام والاستقرار، وقد أشار عدد من المفكرين إلى أن الإصلاح الإنجيلي كان أحد العوامل المهمة لظهور الثورة العلمية.

خاتمة

لا يفصل الفكر اللاهوتي المصلح بين ما هو مقدس وما هو دنيوي؛ لأن كل العالم هو تحت سلطان الله. كما أن الصراع الحقيقي ليس بين الإيمان والعلم، ولكن بين المذهب الطبيعي والمذهب الإيماني؛ لأن هناك اختلافًا جوهريًّا بينهما في الرؤية للعالم والحياة؛ حيث يقوم المذهب الطبيعي بدورٍ دينيٍّ في الإجابة على أسئلة الحياة الكبرى وتقديم رؤية شاملة للحياة. وبحسب كانط فإن أهم ثلاثة أسئلة خطرت على العقل البشري هي: هل يوجد إله؟ هل البشر أحرار؟ هل توجد حياة بعد الموت؟ ويجيب المذهب الطبيعي على هذه الأسئلة فلا يوجد إله وليس هناك كائنات خالدة على الإطلاق، وأن الحجج التي تُثبت أن البشر أحرار في تصرفاتهم مشكوك في صحتها على أقل تقدير.

تساعدنا الرؤية المسيحية المصلَحة على فهمٍ أفضل للعلاقة بين الإيمان والعلم، وتجنِّبنا الوقوع في "فهم مطلق" للعلم، وتدعونا للقيام بالدعوة الإلهية في بناء الحضارة الإنسانيَّة؛ حيث إن هناك تفويضًا للإنسان بتطوير الخليقة وممارسة نشاط العلم وتحرك الإنسانية من جنة عدن نحو مدينة الله. والعلم هو جزء من خليقة الله، ولكن بسبب السقوط صار وكأنه مستقلٌّ عن الله تمامًا مثل الإنسان، فكانت صورة العلم في العلموية والمذهب الطبيعي. وتطرح الرؤية المصلحة فكرتها والتي ترى العلمَ في إطار استرداد الخليقة في المسيح، أن يعود العلم في طاعته للقانون الإلهي.